تنازع البحث الأخلاقي بين التنظيروالممارسة

Ethical research conflicts between theory and practice

أسماء خديم[1]

تاريخ الاستلام: 2021/09/09 تاريخ القبول: 2022/04/14 تاريخ النشر: 2022/07/01

ملخص:

تهدف هذه الورقة إلى مقاربة مجال الأخلاق، والتي عرفت تحديدات مختلفة منذ أن أصبحت موضوعا للبحث. حيث تُسمى أحيانا فلسفة الأخلاق وفي أحيان أخرى علم الأخلاق، وهو ما يقتضي ضبط هذه المفاهيم للتمييز بينها ورسم حدود الأخلاق بين التنظير والممارسة.

وقد اعتمدنا على المنهج التحليلي والنقدي بغرض تحليل تعاريف الأخلاق ومناقشة بعض المواقف من مسألة طبيعتها، وتوصلنا في الأخير إلى أن أهمية الدرس الأخلاق تبقى ملحة رغم كل الاختلافات خاصة في ظل ما نعيشه اليوم من أزمات.

كلمات مفتاحية: القيم؛ الأخلاق؛ النظرية؛ التطبيق؛ السلوك.

Abstract:

This paper aims to approach ethics, which has been defined differently since becoming a subject of research. It is sometimes called the philosophy of morality and, at other times, the science of morality, which requires the regulation of these concepts to distinguish between them and to draw the limits of morality between theory and practice.

We have relied on the analytical and critical method to analyze the definitions of ethics and to discuss certain positions on the nature of the issue. Finally, we have concluded that the importance of the moral lesson remains urgent despite all the differences, especially in the crises we are replacing today.

Keywords: *values; ethics; theory; practice; behavior.*

1 كليةالعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر، الجزائر، البريد الالكتروني [asma.khedime@univ-mascara.dz].

مقدمة:

تعد القيم الإنسانية من المواضيع التي لا يمكن أن نتوقف عن الحديث عنها، فهي حاضرة في حياتنا وثاوية في أعماقها. ذلك أن انغماسنا في الواقع وانخراطنا في تفاصيل اليومي يجعلنا أحيانا لا نعير اهتماما لتلك الثوابت؛ بمعنى آخر أننا نعتقد بأن عصرنا هذا لا يتوقف عن الحركية والتسارع لمطاردة المادي، وعليه لا يمكنه الانتباه لمنظومة من المعاني الروحية التي غالبا ما يعتبرها البعض جهازا رقابيا قد يحد من تلك الحركية أو يتدخل للتحكم في سيرها.

من جهة أخرى لا تكاد حياتنا تخلو من أحداث ومواقف تجعلنا نشعر بالحاجة إلى التدخل القيمي خاصة في جانبه الأخلاقي، لتصحيح ما تسبب الإنسان في إفساده وإعادة ترتيب وجودنا ككائنات أخلاقية. وتكمن حاجتنا إلى الأخلاق في طبيعتنا الفضولية لمعرفة أفعالنا والمقارنة بينها والبحث عن مبادئها العامة، فغالبا ما تصادفنا بعض الصعوبات عندما لا نكون على يقين من المبدأ الأخلاقي الذي ينبغي أن تخضع له قراراتنا. كما نختلف أيضا فيما المقصود بالمبدأ في حد ذاته أو ماذا يُقصد بالفضيلة، ونجد أحيانا أن الخلاف الأخلاقي يتجه نحو مناقشة بعض المسائل الأساسية؛ كالتساؤل عما الذي يلزمنا باحترام القواعد الخلقية؟ وما مصدر تلك القواعد ومن أين تستمد شرعيتها؟

يتميز الإنسان بطبيعته المتسائلة عن حقيقة أفعاله وما مدى إلزاميتها خاصة تلك التي تنخرط في دائرة اختياراته الأخلاقية، والتي لا تبدو واضحة دائما أمامه بحيث يسهل الفصل فيها بل تقع أحيانا بين العديد من الإكراهات، ما يجعله ملتبسا بين الإقبال عليها أو تركها. وهو ما يدفعنا إلى القول بأن مجال البحث الأخلاقي من أصعب المجالات القيمية، وأكثرها غموضا بالنظر إلى خصوصية موضوعاته من جهة وصعوبة إصدار الأحكام الأخلاقية من جهة أخرى. فما طبيعة وخصوصية الأخلاق؟ وهل يدين البحث الأخلاقي في دراسته إلى العلم أم إلى الفلسفة؟ وفي الأخير ما حدود الدرس الأخلاقي بين الممارسة والتنظير؟

وقد اقترحنا الفرضيتين التاليتين:

-يقوم البحث الأخلاقي على النظريات باعتباره يهدف إلى وضع القواعد والمبادئ التي من شأنها توجيه السلوك البشري ومرافقة الإنسان لتحقيق حياة فاضلة.

-لا يمكن الحديث عن الأخلاق دون الإشارة إلى السلوك أو الفعل الأخلاقي، وهو ما يعني وجود تلازم بين معرفة القيم الأخلاقية وبين ضرورة حضورها كتطبيق وممارسة.

غاية هذه المقاربة هي الوقوف على بعض ملامح السؤال الأخلاقي في عمومه باعتباره واحد من المباحث الأساسية التي باشرها الفلاسفة، والذي مازال يفرض حضوره بقوة من خلال تجدد استشكالاته في ظل الأزمات القيمية التي يعيشها عصرنا. وهو الأمر الذي جعلنا نبدأ أولا بالتحديد اللغوي والاشتقاقي لإزالة بعض ما يعتري لفظة " أخلاق" من لبس وسوء فهم، ثم انتقلنا إلى واحدة من المسائل التي تدخل أيضا في

ضبط طبيعة الأخلاق وما دار بين الفلاسفة من نقاش حولها لنصل في الأخير إلى جملة من الاستنتاجات التي أردنا من خلالها مجانبة بعض الموضوعية في الطرح بعيدا عن التحيز أو التعصب.

2. التعريف بفلسفة الأخلاق:

إن مقاربة أي مجال أو محاولة البحث فيه تقتضي –من الناحية المنهجية-حصر مجاله التداولي بضبط مفاهيمه، وتحديد مساحة التعاطي معه هذا بالنسبة لأي موضوع بصفة عامة ماذا لو تعلق الأمر بالبحث الأخلاقي؟ هذا الحقل الأكثر تشعبا واتساعا سواء في مستوى تحديداته اللغوية أو على مستوى ارتباطه وتعالقه مع غيره من المفاهيم المجاورة. تدرس الفلسفة الأخلاقية أفعال الإنسان من حيث صلاحها أو فسادها، والمقصود بالأفعال تلك الإرادية منها أي المقصودة لأننا لا يمكن أن نصدر حكما أخلاقيا على فعل تحكمه الغريزة أو الإكراه.

يضعنا التناول المعجمي لمفهوم الأخلاق أمام تصورين: 1-لغة: جمع خلق وهو العادة والسجية والطبع والمروءة (وهبة، 2007، صفحة 33) وفي التصور الثاني يتحدد علم الأخلاق باعتباره يبحث في الأحكام الخاصة بالخير والشر والفضيلة. وهو بحسب هذا المعطى إما أنه يتجه إلى تحليل سيكولوجي أو سوسيولوجي لأحكامنا الخلقية، لبيان أسباب استحساننا أو نفورنا، أو إلى بيان أسلوب الحياة الذي ينبغي أن نحتذيه كأسلوب خيّر أو حكيم (وهبة، 2007، صفحة 33). نلاحظ أن الاتجاه الأول ينصب وبشكل ضمني في الثاني؛ حيث أن كليهما يقوم على طبيعة الفعل الأخلاقي في حد ذاته بمعنى البحث عن الشيء الثابت الذي يقوم عليه هذا الفعل فيجعله مقبولا أو مستهجنا. ومن جهة أخرى إيجاد الآليات التي بموجبها يمكننا توجيه أفعالنا وبالتالي التحكم فيها.

إن مثل هذا المسعى سيقودنا إلى هدف غاية في الأهمية وهو إيجاد معيار أو أساس للسلوك الإنساني، وهذا ما يجعل المهمة دقيقة وقد تكون مستعصية غالبا. إذ ليس من السهل أن نقف على إجماع أو حتى شبه اتفاق على ضبط وتحديد ذلك المعيار الذي تُبنى عليه سلوكياتنا. إلا أن هذا لم يكن ليحول دون مباشرة المسألة الأخلاقية وتقسيم أو تصنيف مجالاتها، كما أننا يجب أن نعترف مسبقا بأن صعوبة تحديد الأساس ما هي إلا تأكيد صريح على أهمية الدرس الأخلاقي وضرورته في الآن نفسه في حياة الأفراد والجماعات. كما تجب الإشارة بأن مفهوم الأخلاق غالبا ما يلتبس تحديده لدى عامة الناس؛ بين كونه يتضمن الظواهر الأخلاقية الواقعية أو تُراه الذي يختص بدراسة المفاهيم الأساسية في الأخلاق كالخير والشر، الجبر والواجب وغيرها. ومع هذا يمكننا القول إجرائيا أن الأخلاق عبارة عن جملة أو نسق من القواعد التي يتّبعها الإنسان (أو يجب عليه اتباعها) في حياته سواء بشكل شخصي أو في إطار جماعي.

يعرّف لالاند A. Lalande لفظة éthique: "العلم الذي يتخذ كموضوع له الأحكام التقويمية على الأعمال الموسومة بأنها حسنة أو قبيحة " (لالاند، 2001، صفحة 371)وهنا محاولة لحصر مجال الأخلاق من حيث الأحكام التي تصدر فيها وهي تلك التي يمكن تقديرها من حيث الحسن والقبح. وفي السياق نفسه

فصل الفلاسفة الألمان الذين جاؤوا بعد كانط بين علم الأخلاق والأخلاق، بوضع الأولى فوق الثانية مثل شيلنغ الذي يعتبر علم الأخلاق يهتم بالمجتمع من حيث أنه يتألف من كائنات أخلاقية فيحفظ لها حقوقها ويحميها (لالاند، 2001، صفحة 371). كما استخدمت لفظة éthiqueتاريخيا وفق عدة تمظهرات كعلم أو كقانون قواعد التسيير الإنساني، بمعنى أنه البحث في قيمة الأفعال الإنسانية أي علم الأوامر المتجهة إلى المجتمع. بينما اتخذت مفردة morale معنى الأوامر المتجهة إلى الفرد بعينه. وإلى نفس المنحى اتجه هيغل عندما اعتبر moraleمجالا للغايات الذاتية في حين مثّلت éthiqueالسلطة الأخلاقية. ومن جهة مخالفة تماما لهذه اعتبر فريق من الفلاسفة أن morale تتميز بكونها واحدة وكلية وتنطبق أحكامها على الجميع، في حين تتعدد éthique وتختلف معانيها باختلاف مذاهب الأشخاص وأنساق الفلاسفة وبالتالي تتفوق الأولى في الدرجة على الثانية (Conche, 1982, p. 05)

وفي سياق كلاسيكي لتحديد هذا المفهوم يخلص لالاند إلى القول بأن علم الأخلاق هو العلم الذي يتناول كموضوع له قواعد التقدير والاحترام، بخصوص الأفعال بين ما هو قبيح وما هو خير (لالاند، 2001، صفحة 371). كما لا يمكننا أن نخلط بين الأخلاق باعتبارها جملة التعاليم التي يتم التسليم بها في عصر ومجتمع ما محددين مع ضرورة الامتثال لتلك التعاليم، وبين العلم العملي الذي يدرس سلوك الناس في صورته الحية ويحاول تحليلها ومتابعتها. وهو الأمر الذي تعذر على البعض فهمه واستيعابه بالنظر إلى تراوح الدرس الأخلاقي بين صورته النظرية التي ألفه الناس عليها، والتي وضعته داخل حيّز التعاليم والوصايا من خلال ما قدمه الفلاسفة من تصورات عامة وتنظيرات، وبين محاولته رصد الواقع الإنساني وتتبع التحولات الحاصلة فيه وهي مقاربة غايتها فهم تلك الحركية من جهة وإيجاد صيغ قيمية وفكرية لها لتكون قاعدة لكل الحالات التي تتشابه معها من جهة أخرى. ومع هذا لابد من الإشارة إلى أن المعنى الفلسفي للأخلاق يحددها في ذلك العلم المعياري الذي لا يبحث في حياة الناس الراهنة، أي بما هي كائنة بالفعل بل بما يجب أن تكون (بدوي، 1975، الصفحات 7-11).

إن الدخول إلى عالم الأخلاق يضعنا في خضم العديد من الإشكالات التي لا يمكن حصرها نظراً لصعوبته وارتباطه بجوانب مختلفة من حياة الإنسان، لذلك ومن أجل ضبط موضوع الأخلاق علينا التأكيد أنه لا يبحث في الأعمال الإنسانية من حيث خضوعها للقوانين الطبيعية والسنن الكونية، لأن ذلك موضوع العلوم التجريبية. ولا يختص بجانب التفاعل بينها وبين أعمال المجتمع وهو موضوع علم الاجتماع، ولا من حيث الانفعالات والغرائز الصادرة عنها وهو موضوع علم النفس (مرحبا، 1988، صفحة 32) ففيما يبحث علم الأخلاق إذن؟ في أفعال الإنسان من حيث ارتباطها بالخير والشر ومدى علاقتها بالواجب والمثل العليا للسلوك. بمعنى أن موضوع الدراسة الأخلاقية هو الأعمال الإنسانية الإرادية أي الصادرة عن تفكير ووعي وتصميم وحرية واختيار (مرحبا، 1988، صفحة 33). وعليه فالإرادة والحرية في الفعل هما شرطا إمكان البحث الاخلاقي وفي غيابهما لا يكون.

3. ضبط مفهوم الأخلاق:

وفي تعريف آخر لعلم الأخلاق وحسب الأستاذ ابراهيم مدكور فإنه " علم يبحث في الأحكام القيمية التي تنصب على الأفعال الإنسانية من ناحية أنها خير أو شر، وهو أحد العلوم المعيارية" (مدكور، 1983، صفحة 124)وهذا ما وجدناه عند لالاند في معجمه عندما ربط الأخلاق بالأحكام التي من شأنها التعبير عن فعلين غاية في الأهمية وهما الاستحسان (الخير) والاستهجان (الشر). كما أنه علم يتخذ شكلين اثنين؛ الأول أنه عملي والثاني بوصفه نظري يهتم بحقيقة الخير والشر وكل القيم الأخلاقية (مدكور، 1983، صفحة 124). وهنا نجد محاولة لتوسيع دائرة الأخلاق، ففضلا عن كونها دراسة تستهدف البحث في قواعد وضوابط السلوك الإنساني، اتجهت أيضا إلى المجال المفاهيمي من أجل تحديد المفاهيم والكشف عن العلاقات القائمة بينها. والأمر هنا غاية في الصعوبة نظرا لما يتم الكشف عنه من الترابطات التي لا تكاد تُرى بين مفهوم وآخر، فمثلا غالبا ما كان الشر يُعرف بجهل الخير أو سلبه مثلما يُشار إلى مفهوم الرذيلة بعدم معرفة الفضيلة كما هو الشأن عند سقراط على سبيل المثال.

وإذا استرسلنا في الحديث عن خصوصية البحث في الأخلاق لتبين لنا أيضا تعدد تسمياته ودلالاته، فقد يُسمى علم السلوك أو تهذيب الأخلاق أو الحكمة العملية وأحيانا الحكمة الخلقية. ومثل هذه التسميات تحيلنا إلى طرح السؤال بخصوص الغاية من دراسة الأخلاق؟ وما الهدف من وراء تخصيص مساحة شاسعة من اهتمام الفلاسفة لهذا النوع من الفكر؟ "والمقصود به معرفة الفضائل وكيفية اقتنائها لتزكو بها النفس، ومعرفة الرذائل لتتنزه عنها النفس" (صليبا، 1982، صفحة 50) من خلال هذا القول تتضح لنا أهمية الغاية المنتظرة والتي تتضمن مطلبين أساسيين الأول هو التعلم والمعرفة، والثاني الترفع والتنزه عن الرذائل والنقائص. وكلا المطلبين يقتضي ويشترط المعرفة حتى يتحقق، فمعرفة الفضيلة تجعل الإنسان يدركها بكيفياتها كي يتمسك بها وفي المقابل معرفته بالرذائل وتمييزها تمكّنه من استهجانها والترفع عنها. وحتى نتبين بوضوح أكثر غاية الإنسان من التخلق نستطيع القول إنها تكمن في بلوغه السعادة باعتباره يملك القدرة على التمييز بين ما يجب فعله وما لا يجوز الاقتراب منه، وهو ما دفع بالفلاسفة إلى الحديث عن مفاهيم كثيرة تيسر سبل تلك الغاية أمامه؛ كالوجدان والضمير، الخير والمحبة والعدل والواجب واجتهدوا في تأسيسها وفق مبادئ فلسفية عامة قد يجد فيها كل إنسان ما يناسبه أو ما يقارب آماله وتطلعاته.

وعلى هذا الأساس يبقى المشكل الأخلاقي أساس كل تأمل، لأن كل مؤسسة إنسانية تخضع للمشكل المعرفي من حيث إذا كان مبررا أم لا، ممكن أم ضروري، ناجح أم فاشل، هل يتفق مع القيم أم يتناقض معها؟ بمعنى هل هي قابلة للتحقق أم لا؟ ومع ذلك هناك من يرى أن القواعد ليست واحدة لدى كل الأشخاص ولا في كل العصور أو المجتمعات. وهنا نطرح الإشكال كيف يمكننا تأسيس الخير المطلق وفق أخلاق حقيقية؟ وهذا ما يمكن لفلسفة الأخلاق أن تجيب عنه بالنفي أو بالإثبات.

4. -سؤال الأخلاق بين النظر والعمل:

يحتاج الإنسان إلى البحث في الأخلاق من أجل معرفة أفعاله والتفكير فيها والمقارنة بينها، وكذلك للبحث عن مبادئها العامة؛ ففي حالة التأمل الأخلاقي نصادف بعض الصعوبات لأننا لسنا دوما على يقين من المبدأ الأخلاقي الذي يجب أن تخضع له قراراتنا وكذلك أفعالنا. إن هذه الضرورة تلزم كل إنسان أن يبني تصرفاته ويبررها بالرجوع إلى مبدأ خلقي يسير عليه ويقيس به تصرفاته وأفعاله كما يمكنه أن يحكم به على أفعال الآخرين (بدوي ا.، 2000، صفحة 08). إن مسألة المبادئ هذه في الحقيقة تثير أكثر من مشكلة حولها خاصة إن تعلق الأمر بالبحث في طبيعة علم الأخلاق، بمعنى هل هو نظري أم عملي؟ وهل القول بالمبادئ في الأخلاق يعني أن هذا النوع من الدراسات يخلص إلى نظريات قائمة بذاتها أم أنه يتعاطى مع الواقع بكل تفاصيله ومنه يصل إلى التنظير؟ هل علم الأخلاق مثل المنطق وباقي العلوم النظرية أم تراه ينفرد بطبيعة خاصة ومميزة؟

1.4الأخلاق علم نظري خالص:

يعتقد الكثير من فلاسفة الأخلاق عند حديثهم عن علم الأخلاق بأنهم يقصدون به تلك الدراسة النظرية الخالصة والقائمة على التشخيص والفهم، باعتباره يهدف إلى فهم طبيعة الحياة الأخلاقية ومحاولة تفكيك معطياتها. وهم بهذا يعتبرون علم الأخلاق بمثابة الدراسة الصرفة Pure التي يكون الغرض منها هو البحث عن الحقيقة، انطلاقا من رغبة في المعرفة وحب الاطلاع على مواطن الخطأ والصواب في السلوك الإنساني. معنى هذا أن علم الأخلاق من العلوم النظرية الخالصة، التي لا تستهدف من وراء بحثها ودراستها التطبيق والممارسة بل تكتفي بالبحث والنظر فحسب. إن ما يقوم به الشخص من تصرفات وما يسلكه من سلوك ليس من شأن علم الأخلاق في شيء، كما أنه لا يكترث لأثره في حياة الأفراد والجماعات فهو يمضي دون أن يلتفت ليرى الأثر الذي خلفه وراءه في مسار الواقع الإنساني (رشوان، 1998، صفحة 24). كما أن الإنسان في إمكانه أن يكون فاضلا وخيّرا دون الحاجة إلى دراسة علم الأخلاق.

ينطلق أصحاب هذا الموقف من فكرة أن الأخلاق مبحث فلسفي نظري ولا علاقة له بالتطبيق أو الممارسة، مثله في ذلك مثل المنطق والميتافيزيقا اللذان يتميزان بالتجريد التام الذي لا يحتاج إلى الواقع. كما أن الأخلاق لا تستطيع أن تأمر بشيء ولا أن تفرض على الإنسان نمط عيشه، فحياته تمضي وتسير دون أن تهتم لما تقوله الأخلاق ولا ما تقدمه من تعاليم أو توجيهات مهما كانت مهمة. وهكذا تتحول الأخلاق حسب هذا الموقف إلى مجرد دراسة نظرية أو تأملية خالصة ليس في وسعها إبداع ما ينبغي أن تكون عليه حياة الإنسان بأي حال من الأحوال.

تصدى الكثير من الفلاسفة المعاصرين لهذا الموقف باعتباره قد بالغ في تجاهل أهمية علم الأخلاق في حياة الإنسان، فالقول بأن البحث الأخلاقي يقف فقط على بيان معايير السلوك قد يتعارض مع نقد وتقييم الفيلسوف لتلك المعايير القائمة والكشف عن نقائصها إن وُجدت. مما يكشف الطابع العملي

للأخلاق، فالشخص عندما يتعلم الأخلاق يستطيع وبهدي مما تعلمه أن يتعرف على سبل الخير، كما أنه في مقدوره أن يطبق القواعد الأخلاقية على الحالات الجزئية التي تعرض لها. لهذا لا يمكن أن نتنكر لأهمية هذا العلم في تنمية آفاقنا وتوسيعها خاصة عندما نعرض لإحدى المسائل الخلقية الصعبة (رشوان، 1998، صفحة 25).

اتجهت فلسفة الأخلاق منذ بداياتها توجها عمليا وذلك عندما حددت سؤالها المحوري والذي حاول أغلب الفلاسفة الإجابة عليه؛ ما الذي ينبغي على الإنسان فعله تجاه ما يعترضه من مواقف ومشكلات عملية؟ أما السؤال: ما الذي يمكنني أن أعرفه؟ فمجاله مستقل عن الذات التي تطرح السؤال؛ بمعنى أنه يتجه نحو عالم التجربة الحسية والمدركات السابقة والخبرات. أما سؤال الأخلاق كما هو واضح لا علاقة له بالتجارب السابقة ولا بالمكتسبات المعرفية التي تقوم على الحواس مثلا، وإنما هو ينبني على ما نقوم به فعليا من مواقف حية وحلول تفرضها المواقف التي نكون إزاءها. وهو الأمر الذي يُلزم الأخلاق بأن تكون عملية تقوم على الممارسة والفعل وتوجيه النشاط الإنساني توجها تقتضيه حركية الحياة اليومية التي يحياها، ودون أن نهمل ذلك الجانب الثابت الذي تحتويه الأخلاق والذي غالبا ما نصفه بالمبادئ والقيم.

2.4 الطابع العملي للأخلاق

ولكي نتوغل نسبيا في مسألة طبيعة الأخلاق من الضروري أن نعرج على ذلك الجدل الذي دار بين فلاسفة الأخلاق من جهة وإيمانويل كانط (1724-1804) من جهة أخرى، عندما ربط هؤلاء الأخلاق بالتجربة، أي أنها تُبنى وفق ما هو كائن وهي ما يسميها كانط بالأنثروبولوجيا العملية (Kant, 1993, p. 06)، والتي وإن كان يعترف بقيمتها إلا أنه يرفض تعميمها على كل الفلسفة الأخلاقية. بالإضافة إلى أنه من الصعوبة بمكان أن يجمع شخص واحد بين الجانب التجريبي والجانب الخالص في الآن نفسه، "سأقتصر ههنا على التساؤل عما إذا كانت طبيعة العلم لا تستلزم أن يفصل الإنسان _بعناية دائما_ الجزء التجريبي عن الجزء العقلي، وأن يقدم على الطبيعة بالمعنى الخاص بها (أي التجريبي) ميتافيزيقا الطبيعة، وأن يقدم من جهة أخرى على الأنثروبولوجيا العملية ميتافيزيقا الأخلاق، فإنه ينبغي الحرص على تنقية هذين الضربين من الميتافيزيقا من كل عنصر تجريبي." (Kant، 1993، صفحة 06) ولابد من الاعتراف بأن هذا الجدل القائم له ما يبرره، فبالنسبة لمجال الأخلاق يتعذر التعامل مع المسائل العملية بشكل نظري. وهو الأمر الذي جعل البعض يعتقد أن مجال الأخلاق يفرض نفسه كممارسة وهو في غنى عن أي تنظير.

وفي الحقيقة أن هذا الموقف حقيقي حيث أن التنظير يعني الفلسفة أي التأمل والاستناد في النهاية إلى دعامات ثابتة تسمى المبادئ (روس، 2001، صفحة 05). إلا أن تلك المبادئ لا تبقى ثابتة بحكم احتكاكها بالواقع، ومحاولة تكييفها مع تلك الحركية الراهنة، وهذا ما يؤدي إلى جملة من الأفكار المتراوحة بين النظري والعملي في الآن نفسه. لو تأملنا الطابع العملي لفلسفة الأخلاق لوجدنا أنها تتجه نحو الفعل الإنساني، وهذا ما جعلها تتميز دوما بالمرونة والحيوية فهي تلازم حياة الإنسان بحركيتها وتفاعلاتها، وهي

من ناحية أخرى تعمل على رصد الثوابت التي تتكرر في كل زمان ومكان، من أجل إعطاء رؤية كونية لهذا الجانب المهم للأفراد والجماعات. وقد ولد هذا التوجه أصنافا عديدة من الأخلاق اليوم والتي ترافق حياة الإنسان اليومية بعيدا عن الأفكار المجردة، كأخلاق الطب والبيولوجيا (البيوإيتيقا)، أخلاق البيئة (الإيكولوجيا)، وأخلاق الاقتصاد والسياسة أو أخلاق المجال الإعلامي وفضاءات التواصل.

إن هذا الخلاف حول طبيعة الأخلاق لا يمكن حله بترجيح الموقف الأول على الثاني أو العكس، بل الأمر في غاية الصعوبة وعلينا أولا أن نطرح السؤال: هل تؤثر النظرية الأخلاقية على التطبيق أم أن التطبيق العملي هو الذي يؤثر على النظرية؟ لا يبدأ عالم الأخلاق عمله انطلاقا من أفكار مجردة ومفارقة ليستنتج منها نظريته، بل ينطلق من أفكار عامة وشائعة في زمانه ومكانه ويفحصها ويعدلها بما يتفق ومبادئ الإنسان وبديهياته ثم يرتبها في نظام نسقي. بمعنى أنه لا يفرض معايير أخلاقية جديدة على الآراء الأخلاقية الموجودة، ولكنه يستخلص تلك المعايير الأخلاقية من الآراء الموجودة ويقوم بنقدها وتعديلها (ليلي، 2000، صفحة 391). وعليه نستنتج أنه إذا كانت وظيفة الأخلاق هي كشف الحقيقة الأخلاقية، فإن هذه المهمة تقتضي التأثير في الجانب التطبيقي بتخليصه من التناقضات وتوسيع دائرة الوعي فيه، وبهذا تجمع الأخلاق بين النظري والعملي في الآن نفسه.

5. خاتمة:

في ختام هذه الورقة وبناء على ما سبق يمكننا استخلاص النتائج التالية:

-تكمن أهمية الدرس الأخلاقي في مدى حاجة المجتمعات للتوجيه والمرافقة الإيتيقية، كما أن مقاربة الإشكاليات الأخلاقية ليست حكرا على فترة معينة أو عصر بعينه بل هي صالحة لكل الأزمنة.

-من الضروري ضبط المفاهيم في مجال الأخلاق وذلك منعا للالتباس والغموض بينها، حيث غالبا ما يحدث خلط بين الأخلاق والعادات أو الآداب كما هو بين فلسفة الأخلاق والسلوكيات الإنسانية اللاإرادية، ومن جهة أخرى التمييز بين الدراسة العلمية للأخلاق وبين الوصف العفوي الساذج لها وهو ما يستدعي تحديدها والإمعان فيها.

-لا تكمن غايتنا من هذه الإشكالية في بيان التعارض بين النظر والعمل في الأخلاق وإنما في قيمة كل قطب منهما، ومدى أهميته في إثراء الدرس الأخلاقي. كما أنه ليس من الصواب النظر إلى السؤال الأخلاق بصورة تجزيئية وبتفكيكه إلى عناصره، بل الأصح هو التعاطي معه كوحدة أو بنية تفاعلية ومتجددة بتجدد ما يحيط بها من مستجدات إستشكالية ومثيرة للحيرة.

-يعتقد العديد من المشتغلين بالفلسفة في وجود تعارض واختلاف بين النظري والعملي ولعل الأمر يصدق على بعض التخصصات العلمية التي يبدو فيها البون شاسعا بين شقها النظري والآخر التطبيقي كالفيزياء مثلا، لكن لا يجب حصر العلاقة بينهما في بعد واحد خاصة عندما نقاربها من حيث صلتها بالإنسان المتعدد الأبعاد والذي لا يقف على جانب واحد منهما فقط، حيث أنه لا يكف عن صياغة

النظريات ولا عن تطبيقها وممارستها كما أنه يتطلع دوما نحو تعقل كل أفعاله والتفكير فيها. لذلك فلا يوجد هناك تنافر بين الجانب النظري والجانب العملي من الأخلاق.

-أنتج الانتقال من المستوى النظري إلى المستوى العملي في الأخلاق لنا أشكالا متعددة من الأخلاق التطبيقية، حيث أصبحنا نتحدث عن البيواتيقا أو أخلاقيات الطب كما أن الإلزام الأخلاقي لم يعد ضرورة بشرية فقط، بل أصبح يشمل كل الكائنات الأخرى من حيوانات ونباتات من مبدأ مسؤولية الإنسان تجاهها وهو ما أفرز لنا ما يُعرف بأخلاقيات البيئة.

-إن التقدم الهائل الذي أحرزته الإنسانية جراء ما توصل إليه العلماء من تقنيات وتطبيقات زاد من صعوبة الحياة وقسوتها، ليس على مستوى الحاجات المادية وإنما في ظل غياب الرقابة الأخلاقية الشاملة للنظر والعمل، التي لا تستمد شرعيتها من الردع القانوني فحسب، بل من الإرادة الإنسانية العاقلة والمتحررة من كل الإكراهات والوصايات.

6. قائمة المصادروالمراجع

- Conche, M. (1982). Le fondement de la morale . France: éditions de Mégare.
- Kant, E. (1993). Fondement de la métaphysique des moeurs. (V. Delbos, Trad.) Paris: Librairie générale française.
- بدوي، ا. م .(2000) .الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع .مصر: دار المعرفة الجامعية.
- بدوي، ع. ا .(1975) .الأخلاق النظرية .الكويت: وكالة المطبوعات.
- رشوان، م. م .(1998) .تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية .القاهرة: دار قباء للنشر والطباعة والتوزيع.
- روس، ج .(2001) .الفكر الأخلاقي المعاصر) .ع. العوا (.Trad ,بيروت: عويدات للنشر والطباعة.
- صليبا، ج .(1982) .المعجم الفلسفي .Vol)ج1 .(بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- لالاند، أ .(2001) .موسوعة لالاند الفلسفية) .(éd. 2)خ. أ. خليل (.Trad ,بيروت، لبنان: منشورات عويدات.
- ليلي، و .(2000) .مقدمة في علم الأخلاق) .ع. ع. محمد (.Trad ,الإسكندرية: منشأة المعارف.
- مدكور، ا .(1983) .المعجم الفلسفي .القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- مرحبا، م. ع .(1988) .المرجع في تاريخ الأخلاق .لبنان: جروس برس.
- وهبة، م .(2007) .المعجم الفلسفي .القاهرة: جار قباء الحديثة للطباعة والنشر.